جلسة عائلية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

« عمى . ! »

فلم أجب ، ولم ألتفت ، فكأن النداء كان لغيرى ، ومضيت فى كلامى مع صاحبتى ، وكان الهواء طول النهار راكداً ، والحر شديداً ، ثم بدأ الجو يطيب ، والجلسة تحسن ، فى هذه الصحراء النائية التى لم يكن يخطر لى أن يهجم على أحد فيها من أهلى .

« عمى . . . »

فأيبت أن أشعر أن النداء لى ؛ فقالت صاحبتى : « ألا تسمع ؟ »

ولم يكن ثم شك فى أنى أنا العم المقصود ، فقلت : « سامع ، وفاهم . . . »

« عمى . أنت هنا ؟ من الصبح أناديك »

فوقفت — فما بقى من هذا بد — والتفت إلى الصغيرة التى بح صوتها وقلت : « هل سمعتك تنادين عمك ؟ »

قالت : « طبعاً . . لى نصف ساعة وأنا أفعل ذلك »

قلت : « هل تريدين منى أن أبحث لك عنه ؟ . . أناديه معك ؟ ان صوتى مع الأسف خافت . خفيض جدا . . . لا يذهب إلى أكثر من متر . يصلح للهمس فقط . فى الأذن »

فضحكت الصغيرة وقالت : « ماذا تقول ياعمى ؛ لماذا تتكلم هكذا ؟ »

قلت : « عمك ؟ أنا ؟ أنا عمك ؟ » .

قالت : « بالطبع . . ألا أعرف عمى ؟ » وضحكت .

قلت : « واثقة ؟ » .

قالت وهى لا تزال تضحك وقد راقها كلامى : « جدا » .

قلت : « ولا شك عندك » ؟

قالت : « أبدا » .

قلت : « ولا رغبة فى الشك ؟ »

قالت : « كلا » .

قلت : « يعنى أن لى أخاً أنت بنته فانا عمك ؟ »

قالت : « آه » .

قلت : « بهذه السهولة ؟ بلا تردد أو مناقشة أو بحث ؟ . وا أسفاه ! . ألحق أن روح البحث العلمى ينقص الجيل الجديد »

قالت : « ماذا تعنى ؟ »

قلت : « يابنت أخى — أظن أنه لا شك عندك فى هذا — إن الذى أعنيه هو أن المسألة تحتاج إلى تمحيص قليل ، وأن التسليم بهذه السهولة ليس من أخلاق العلماء . تفضلى واجلسى فان الجلوس أعون على البحث السديد » .

فجلست وطلبت لها شيئاً من عصير البرتقال ، فهو خير ما يشرب فى هذا المكان وفى مثل ذلك الجو وعرفتها بصاحبتى ثم قلت لها :

« نعود الآن إلى عمك »

فقالت : « ماله ؟ »

قلت : « لا شىء به . كان الله فى عونه . هل تعرفين ابن الرومى ؟ »

فابتسمت صاحبتى وقالت الصغيرة « ابن ال ؟ ابن إيه ؟ »

قلت : « مسكين ابن الرومى ! . ألم تسمعى به قط ؟ »

قالت : « لا . . أبداً . . أين هذا ؟ »

قلت : « مات من زمان » .

قالت : « وكيف أعرفه وقد مات من زمان ؟ »

ولقد يسأل السائل من جديد : ومن لنا أن نثبت فيه الحس المأمول ؟ وجواب ذلك سهل فى التعبير ، ولا أزعم أنه سهل فى الانجاز والتحقيق

جواب ذلك ان الحس لا يخلق خلقاً ولكنه يتعهد بالحث والايقاظ إن أصابه جمود ورانت عليه ثقلة الكسل والجثوم

وليس أنجع فى الحث والايقاظ من تصحيح الأجسام وتصحيح الأذواق : تصحيح الأجسام بالرياضة الصالحة القوية ، وتصحيح الأذواق بالفنون الجميلة الرفيعة ؛ ومن صح جسده وحسن ذوقه فلن يفوته الشعور بما حوله ؛ ومن شعر بما حوله فماذا يبقى له إلا أن ينشط ويعمل ، وإلا أن يريد وينجز ما يريد ؟

عباس محمود العقاد

قلت : « صدقت . الذى يموت لا يعرفه أحد . يكون ذنبه على جنبه . خازوق ! »

قالت : « ما هو ؟ »

قلت : « ان يموت . . أ . . أ . . إن ابن الرومى مات »

وقالت صاحبتى : « دع الموت والموتى بالله . حسبك الأحياء فاركبهم بما شئت من هزلك »

وقالت الصغيرة : « من هو ابن الرومى ياعمى ؟ . إني أراك تعطف عليه »

قلت : « صحيح . . مسكين » . ابن الرومى هذا ياستى كان رجلا له لحية . . كان ينبغى أن يظل وجهه أمرد ، أملس ناعما فقد كان جميلا فى صباه ، ولكنه كان مع الأسف رجلا ، والرجال مصابون باللحى . . آه لو كانت اللحى تنبت للنساء ! ولكن الله أعفاكن من هذا البلاء . . ومن حسن حظ ابن الرومى ـ أو من سوء حظه ، لا أدرى ـ أن الناس فى زمانه كانوا لا يحلقون لحاهم كل يوم كما نفعل نحن تقليداً لكن يابنات حواء . . غريب ! ينفر الرجال من مظاهر الرجولة ويدأبون على محوها كل يوم ! . . ولا نرى المرأة تحاول أن تكون لها لحية كالرجل ! . . لاتخافا فلست أنوى أن ألقى محاضرة عليكما ، ولكنه يخطر لى الآن أن من غير المقبول من الرجل أن يتجمل ويحاكى المرأة ويحاول منافستها فى مزيتها فهل هذا يا ترى تخنث منه ؟ أم هو من الرغبة فى أن يتسلح للنضال بكل سلاح ؟ . . ماعلينا ! . . فلنرجع إلى ابن الرومى : كان هذا ياستى ذا لحية خفيفة قليلة الشعرات ، ولكنها لحية على كل حال ؛ وكان يأسف لأن « السيفتى ريزور » — آلة الحلاقة الحديثة — لم تكن قد اخترعت فى زمانه . . »

فقالت الصغيرة محتجة : « ياعمى ماهذا الكلام ؟ . . كيف يمكن أن يأسف على شىء لم يكن يعرف أنه سيكون ؟ »

قلت : « والله ذكية ياملعونة ! . . نهايته . . الحق معك . . فهل الأصح أن أقول إنه لم يكن يأسف على عدم اختراع السيفتى ريزور ؟ . . سيان ؟ . . هيه ؟ . وكان ياستى يخاف من البرد جداً ، فكان إذا دخل الحمام ـ أعنى إذا أراد أن يستحم ـ يوقد فيه النار ليضمن لنفسه الدفء حين يكون فيه ويملأ الطشت بالماء الساخن ، ويعد الليف والصابون النابلسى الجيد ـ أم ترى هذا لم يكن معروفاً ؟ . . لا بأس ـ ويطلق البخور ثم يدخل متوكلا على الله ، متوسلا إليه تعالى أن يحرسه فى الحمام ، وأن يخرجه منه بخير وسلام . . »

فقالت الصغيرة : « أكان يخاف إلى هذا الحد ؟ . . لماذا ؟ مم كان يخاف ؟ »

قلت : « أوه ، لا أدرى ! . يظهر أن كلباً كلباً ـ مسعوراً ـ عضه فى طفولته ولم يشف قط ، أو لم يشف تماماً . . كووه بالنار أو لا أدرى ماذا فعلوا به . . ولكنه لم يشف »

فقاطعتنى سائلة : « صحيح ياعمى ؟ . . مسكين ! »

قلت : « لا أدرى . . هذا تخمين . . وإلا فلماذا كان يخاف من الماء كل هذا الخوف حتى ليقول :

وأيسرُ إشفاق من الماء أننى أمرُّ به فى الكوز مر الجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب

فكيف بأمنيه على نفس راكب ؟

فقالت صاحبتى : « ياشيخ حرام عليك ! . . اتق الله ! . . لا تصدقيه »

فتلفتت الصغيرة منها إلىّ ، ثم قالت بعد تردد : « هل كان شاعراً ؟ »

قلت : « لا . . لم يكن شاعراً . . وإنما كان يغنى فى الحمام فيخرج الكلام موزوناً وهو لايدرى . . ولكن الناس لايتركون أحداً مرتاحاً . . ويظهر أن بعضهم كان يسترق السمع وراء باب الحمام ، ويقيد كل مايسمعه من ابن الرومى وهو يغنى نفسه ويتسلى فى الحمام . ثم جمع كل ماسمعه ، ودفعه إلى الناس وقال هذا شعر ابن الرومى . ، الناس ملاعين . . أشقياء . . لايدعون أحداً مرتاحاً . . الرجل كان يسلى نفسه فى الحمام فمالهم هم ؟ . . إيه ! . . هكذا الناس يحشرون أنفسهم فيما لا يعنيهم . . فضول ورزالة . . نهايته . . وكان مما يغنى به وهو ينظر فى المرآة إلى لحيته ، ويمشط شعراتها القليلة ويفتل أطرافها لتكون كالقلم الرصاص المبرى هذا البيت :

أصبحت شيخا له سَمْتٌ وأبهة
يدعونني الغيد عما ـ تارة ـ وأبا

كان يتحسر على شبابه، ويأسف لأنه صار ذا لحية . . ويظهر أن الغيد الحسان من أمثالكن بغلطن فتارة يقلن له ياعمى ، وطوراً يقلن له يا أبى . . غريب ألا يعرفن أهو أب لهن أم عم ؟ . . ولكنك أنت لاتغلطين . . أنا عمك فقط . . متأكدة أنى لست أباك أحياناً ؟ »

فقالت صاحبتى : « أعوذ بالله منك ! »

وقالت الصغيرة : « متأكدة جداً . . عمى بالطبع . كيف يمكن أن تكون أبى ؟ »

قلت : « معقول ألا تغلطى . . لسببين : الأول أنى لا أرسل لحيتى كما كان ابن الرومى مضطراً أن يفعل لأن الله خلق السيفتى ريزور فى زمانى والحمد له ، أعنى لله ، بالطبع ، لا للموسى ؛ والثانى أن أباك المحترم مقبل علينا يتهادى فى مشيته . . أحسبه يفخر بأن له بنتاً مثلك . . له الحق ! »

وجاء الأخ الفاضل وقمت بواجب التعريف الذى لامهرب منه ، واتضح لى — بعد أن تجشمت عناء القيام بهذا الواجب انه كان يسعنى أن أريح نفسى ، فقد سبق لأخي أن عرف صاحبتى فى بيتنا .

وجلسوا . وجلست وأنا أتنهد وأنظر إلى صاحبتى وأقول :

« معذرة . ليس هذا ذنبى . وأنت ذكية ، وتستطيعين أن تدركى بسهولة أنه لا مهرب من الأهل . لقد جئنا إلى آخر الدنيا من ناحية الشرق ، ولو أنصف الزمان لذهب أخى الفاضل إلى آخر الدنيا من ناحية الغرب مثلا ، أو الجنوب أو الشمال ؛ ثلاث جهات كان يمكنه أن يذهب اليها ، ولكن جاذبية الدم تصرفه عن الجهات الثلاث وتدفعه إلى هذه الجهة فيدركنا ويملأ علينا الدنيا ، ويشعرنا بأنها فى الحقيقة أصغر مما كنا نظنها . ويؤنسنا طبعاً . أظن أن فى وسعنا أن نغتفر له هذا من أجل بنته ، من أجل عينيها اللتين وقعتا على بسرعة البرق ، تصفح عن أبيها ونرحب به . تعال ياجرسون والأمر لله . وحسبى الله »

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى تبويب الكتب

للدكتور محمد عوض محمد

لقد تجرى فى حياتنا الأدبية الهادئة حادثات ونوادر طريفة تستحق أن تُسجَّلَ وتُثبت ؛ ومن ذلك هذه الرسالة التى كتبها صديقنا الأديب إسماعيل بن زيد إلى صديقه الفاضل الأستاذ طه حسين ، مُستَفتِياً ومداعباً

وصاحبنا إسماعيل يزعم أنه قد تكدست لديه المؤلفات القيمة ، ولكنه لا يعرف كيف يقسم كتبه إلى أبواب وفصول ، ولذلك لم يستطع نشر شىء من مؤلفاته إلى اليوم . وهو يزعم فى هذا أن عناء التأليف والتصنيف ليس بشىء يذكر إلى جانب عناء التبويب والتفصيل .

فلم يكد يطالع فى كتاب للأستاذ حسن إبراهيم حسن قطعةً يصف فيها الأستاذ طه حسين بأنه « لا يشق له غُبار فى تبويب الكتب » حتى تناول قلمه الرشيق ، وأرسل اليه هذا الكتاب ، الذى عثرنا عليه بمحض الصدفة ، والذى نثبته هاهنا بنصه وفصه :

استفتاء

إلى العميد العظيم طه بن حسين !

نَعِمَ صباحُك أيها العميد !

وبعد فانى أريد أن أستَفتِيَكَ فى أمر شهد لك فيه صديقنا حسن إبراهيم حسن بالتقدم والبَراعة ، حيث قال فى غير موضع من رسائله الممتعة إنك لا يشق لك غبار فى تبويب الكتب

ولدىَّ أيها العميد العزيز رسائل عديدة فى موضوعات جليلة ، حرت فى أمرى وفى أمرها : كيف أجعل لها أبواباً ونوافذ وشبابيك . . . وهى رسائل ـ وحقك ـ ذات خطر عظيم وشأن جليل ؛ أريد أن أتقدم بها إلى بعض معاهد العلم لكى أحصل بها على ألقاب فخمة ، وأسماء ضخمة . .

وما خيرُ حياة ، يعيش صاحبها من غير ألقاب ولا أسماء ؟ ولقد حدثنى من أثق بشهادته أن الألقاب أعظم شىء فى الحياة ، وأنه أفضل لابن آدم أن يكون له لقب ، من أن يكون له أدب .